Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سقيا لملاعب الصّبا ، ومغاني الشباب ، ما احْلاها ، وما امرّها على قلوبنا ، اذا عُدْنا اليهـــا ، بعد طول الاغتراب ، لنراها بعيون غشّاها المشيب بسُحُب من الوهَن ... انها تُثير ، في صدورنا ، زوبعـــة من الذكريات ، يعْتلج فيها الأنس والحنين والاسف والوحشة والحزن والجزع واليأس والتأسي ، فيلذّ لنا ، في غَمْرة هذه الكآبة الحُلوة ، ان نَبكي... على انفسنا ، وعلى اولئك الذين فارقونا ، والذين اوْشك ان نفارقهم ، بكاء المسافر النّازح ، الذي لا يُخفّف من لوعته ، على فراق احبّة اعزاء ، الّا املٌ بلقاء اعزاء آخرين ، ينتظرونه في بلدٍ بعيدٍ بعيد ...

في هذه المواقف الاخيرة من العُمر ، نجد الحياة ، في اعيننا ، اغْلى واحْلى ما تكون ، واتفَه وامرّ ما تكون ، فتُترعبنا فكرة الفنـــاء ، ونشْعر ، اكثر من أيّ وقت مضى ، بحاجتنا الى الخلود ، وبفقرنا الى الأيمان بالخالد الأزليّ السّرمَديّ ، الذي وعدنا بحيـــاة اخرى ، لولاها لكانت حياتنا الدنيا عبثاً ظالما .

ومن مغاني صباي ، في بلدي ، (جامع طَيْنَال) ، الذي يثْوى عند منقطع العمران ، في روضة من بساتيننا العَطرة الساحرة . فلي فيه ، من ذكريات الطفولة ، كلُّ عزيز . انه يُذكّرني باصْبوحات العيـــد ، حيث كان ابي يأتي ، وانا وراءَه ، قبل شروق الشمس ، ليزور موتانا في المقبرة التي تُجاور الجامع ، ثم يؤدي صـــلاة العيد فيه ، ويُذكّرني بامسيّات الصيف الحلوة ، التي كنت العب فيهـا ، عند الشجرة في فناء المسجد ، بين الحوض والبئر ، وابي قاعـــدٌ في غرفته ، يتحلّق حوله رهط من الشيوخ ، يستمعون اليه ، فاذا تغفّلتُه عدوْتُ الى البستان ، اقطع من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سياجـــه قصبة اجعلها جواداً ... ويُذكّرني بتلك المأذنة ذات السلّم اللولبية المزدوجة ، التي كنا نصعد فيها ، من فناء المسجد، لنجدَ انفسنا ، بعد لحظة ، في داخل الحرم ... ويذكّرني بذلك المؤذن العجوز ، الذي كنت الجّ عليه ان يصعد مغي الى المأذنة ، ليؤذّن في غير وقت الصلاة ، وهو يتحيَّر كيف يُعَلّلني ويُسَوفني حتى يدخـــل وقت المغرب ... ويُذكّرني بأُمي ، التي كنت احدثها عن المأذنة العجيبة ، والبئر العميقة ، وسياج القصب ، فتُحذرني من الأفاعي ، وتلحّ عـــلى خادمنا ، ان لا يتركني اطلع الى المأذنة أو ادنو من البئر ...

يُذكّرني بكل هؤلاء ، الذين طواهم الموت ، فذهبوا وخلّفوا في قلبي غُصَصاً ، تغور في الأعماق ، تحت ركام الأيام والسنين ، فاذا عُدتُ إلى (طَيْنَال) ، عادتْ تَشدُّ على هذا القلب العميد باصابعَ من جَمْر وحديد ...

وطوّحتْ بنا الايام والسنون ، فبَعدنا عن الحَيّ ، وبَعدنا عن الجامع ، وبَعدنا ، اخيراً ، عن البلد كله... ثم عدنا بعد طول الاغتراب ... وحمَلني الشوق الى (طَيْنال) ، فجئته في يوم ، رأد الضُحى ، عند غيبة المصلّين ، وتنقّلتُ في ملاعب الطفولة ، واثرْتُ الذكريات كلّها ... وبكيت ما شاء الله ان ابكي ...

وفيما انا مستغرق في صمتي ، لا اسمـــع الّا صَدَى النشيج ، تُردّده قباب المسجد الشاهقة ، اتاني صوت من داخل الحُجرة الشرقية ، التي كنت احْذر ، في طفولتي ، ان اقترب منها ، خوفاً من القبور التي فيها . ثم اطلّ من بابها ، شيخ مهيب الطلعة ، ابيض الشعر ، غريب الزيّ ، ومشى اليّ . وبعد ان القى السلام ، قعـد بجانبي ، وقال بلغة عربية فصيحة ، فيها اثرٌ من لُكْنَةٍ عجماء : ما الذي يُبكيك يا اخي ؟

قلت : ذكريات لي ، في هذا المسجد ، من عهد ابي ، وايام صباي .

قال : ومَنْ ابوك ؟ فما كدت اتلفّظ باسم ابي ، حتى ارتعش بدنه . وقال ، وهو يُحدّق اليّ بعَيْنين تجول فيهما الدموع : ابوك الشيخ الجسر؟. قلت نعم . ومَنْ انت يا سيدي ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال : انا ، في الأصل البعيـد ، من مصْر ، من (آل المائي) ، الذين نزح بعضهم الى ديار الشام ، وبعضهم الى الحجاز . ومن الحجاز ساقت الاقدار جَدّ ابي الى الهند ، واستقرّ فيها . واسمي « حَيْران بن الأضْعَف البَنْجَابي » .

قلت : ما الذي جاء بك ، من الهند ، الى هذا المكان ؟

قال : اني لست آتياً من الهند ، بل من سَمَرقَنْد ، بل على الأصح ، اني آتٍ من قرية (خَرتَنْك) في سمرقند .

قلت : ما الذي جاء بك ، من ذلك المكان البعيد ، الى بلدتنا ، وما الذي اقامك في هذا المسجد ؟

قال : عَرّجت على بلدكم لأزور اباك ...

فنظرتُ اليه متعجباً ، فقد مضى ، على موت ابي ، زمن بعيد .

قال : لا تعجب . جئتُ ، وانا في طريقي الى الحجاز ، ازور قبره ، وازور هذا الجامع الذي حبّبه اليّ شيخي حين وصفه لي ، واخبرني ان اباك كان يُلقي الدروس فيه . وقد دلّني المصلون على هذه الغرفة التي كان يأوي اليها ابوك . ووجدتُ هذا المسجد اشبه شيء ، بمسجـد (خَرْتَنْك) ، الذي قضيتُ فيه أغلى واحلى ايام حياتي ، فطاب لي ان اقضي فيه اياماً ، قبل ميقات الحـجّ ، لأنقطع الى عبادة الله ، في مقام الرجل الذي هَدَى شيخي الى الله ...،

قلت : وَمَنْ هو شيخك يا مولاي ؟

قال : هو الشيخ ابو النُّور الموزون رحمه الله ، من علماء سمرقند .

قلت : اتقضي ايامك كلها بالعبادة ؟

قال : امّا الآن فنعم ، ولكني ، قبل ذلك ، كنت اكتب قصّة ضلالي وايماني ، التي املاها عليّ شيخي الموزون ، ومنها عرفتُ اباك رحمه الله .

قلت : ما هي قصة ضلالك وايمانك ؟

قال : انها طويلة ، وسأنشرها للناس اذا يسّر الله .

ثم نهض الرجل ودخل الى غرفة القبور ، وعاد يحمل دفتراً كبيراً ، وضَعه بين يديّ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال : هذه أمالي الشيخ الموزون ، ولكني نسختها نسخاً حسناً ، من دون ان ازيد فيها شيئاً .

قلت : هذا كتاب كبير . اتسمح لي ان احمله الى داري لأقرأه ، في ليلتين ، واردّه اليك ؟

قال : اتُحْسِنُ التركيّة ؟

قلت : نعم أُحْسِنُها جداً .

قال : أسمَحُ لك بالكتاب ، اذا وثقتُ بانك ابن الجسر حقاً ، وانك اهل لقراءة الكتاب .

قلت : ليس لي ان اؤكد لك صدق نسبي ، الا اذا تكرمتَ بمرافقتي الى داري ، ليشهد لك الناس ، ولأريك كتب ابي .

قال : لا يحتاج الامر الى كل هذا . ولكنْ اسألك سؤالاً واحداً . ما هو اعظم كتب ابيك ، وما هو الباب الأهمّ فيه ؟

قلت : اشهر كتب ابي (الرسالة الحميدية) ، والباب الأهم فيه ، هو الذي يدور البحث به حول اثبات وجود الله ، والردّ على الطبيعيين المُلحدين . ولكن هذا الباب الأهمّ مدفون ، بين مباحثَ اخرى تتعلق باثبات النُبوّة ، في صدْر الكتاب ، وببعض الحِكَم في آخره ؛ لذلك وقع في نفسي ، ان اجرّد المبحث الاهمّ ، وان الخّصه ، واطبعه على حدته .

قال : آمنتُ بانك ابن الشيخ حقاً ، وبانك اهل لحمل هذه الامانة . وكتابي هذا هدية مني اليك ، ففيه ما ذكرتَ من التلخيص لكتاب ابيك ، وفيه قصّة ضلالي وايماني كلها . فخذه وترجمْه واطبعْه وانشره بين الناس . ولا اسألك عليه اجرا ، ولكن اسأل الله الكريم ، ان يجعل عملي خالصاً لوجهه ، وان ينفع به الناس ، وينفعني ، اذا جاء اجلي ، وانقطع عملي ...،

وسافر الرجل ، بعد ايام ، الى الحجاز . واخذتُ انا في ترجمة الكتاب ، في بضع سنين . ثم طوّحتْ بي طوائح الزمن الى (طَشقَنْد) . وكان اعظم همّي ان اصِلَ الى (خَرْتَنْك) ، لأزور حيْران بن الاضعف ، واعرض عليه الكتاب ، بعد الترجمة ، وازور ضريح الامام البخاري